محمد ياسين الحموي

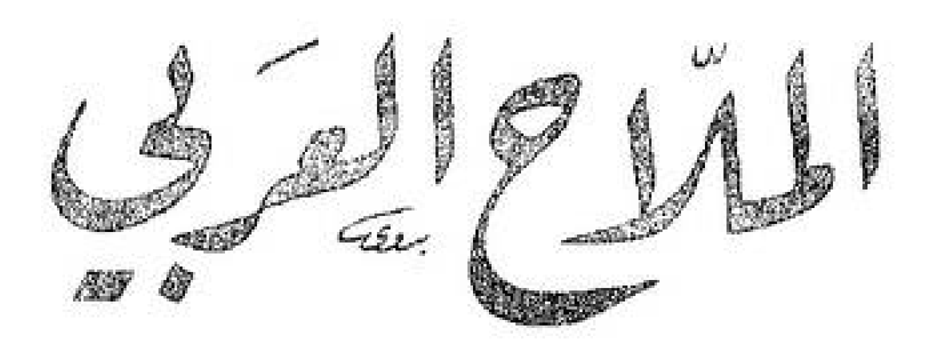
الملاّح العَرَبي

احمد بن ماجد

ناحية مجيدة من الثقافة البحرية العربية

مكتب النشر العربي

محمد ياسين الحموي



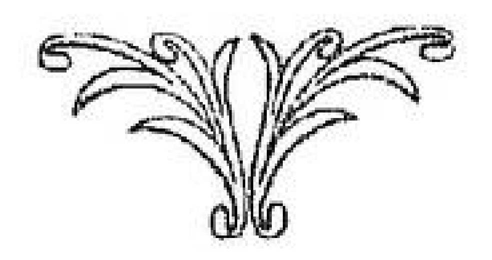
احمد بن ماجد

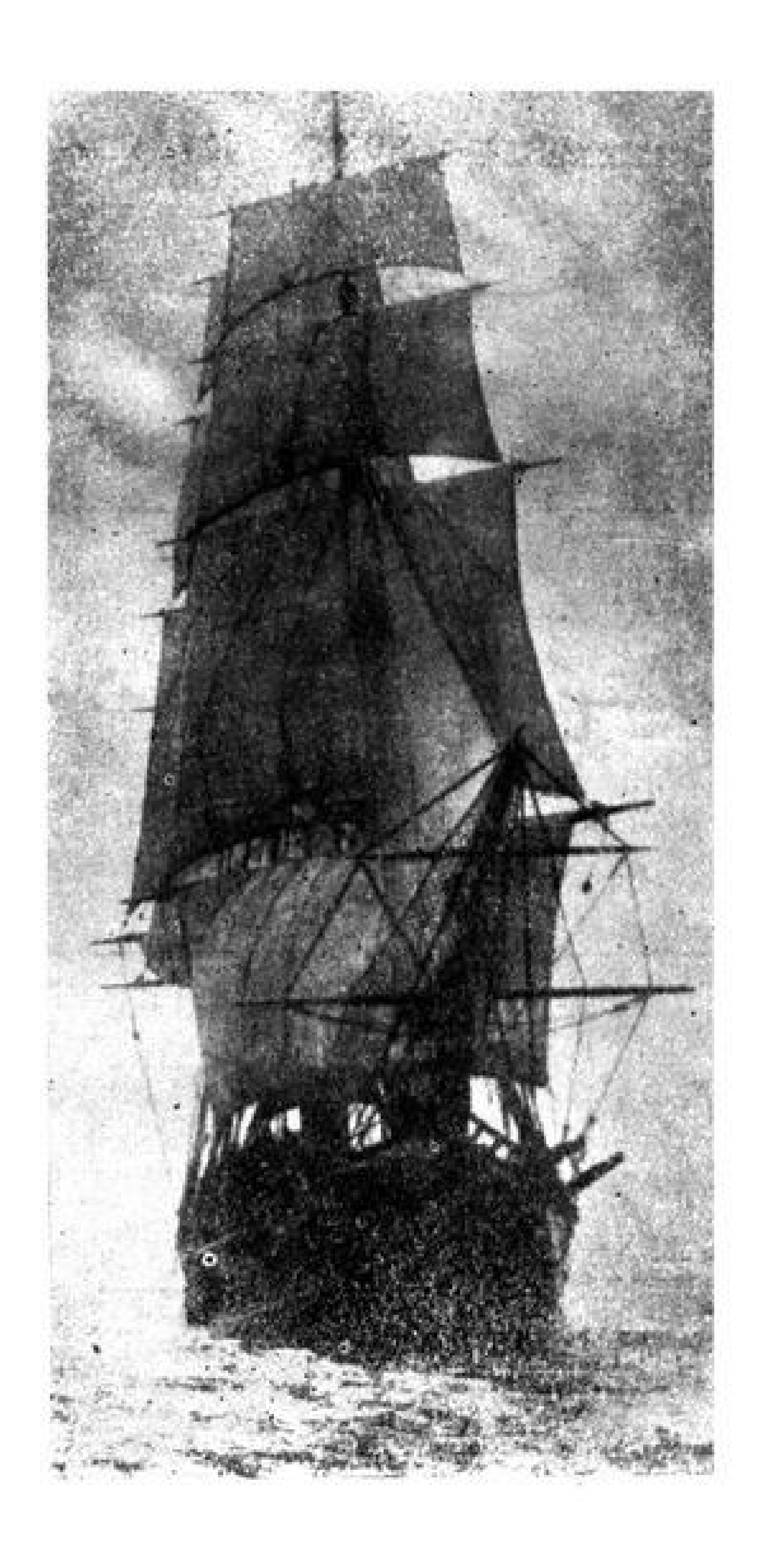
ناحية مجيدة من الثقافة البحرية العربية

مكتب النشر العربي



وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ





قطع العرب في العصور الوسطى شوطاً بعيداً في مدارج الحضارة ومعالم المدنية ، قصّر عنهم فيه معاصروهم من أمم الغرب ، ولم يبلغوا شأوهم ولا مداهم . إذ بينما كان الغربيون في جاهلية جهلاء يئنون مما أصابهم من ضعف وانحلال ، كان العرب يرحون في مسارح العلم ويتقلبون في نعماء الحضارة ؛ تمخر سفنهم عُباب البحار ، وتجتاز قوافلهم الفيافي والقفار طلباً للتجارة وهي من أعظم موارد ثروتهم ؛ وبذلك تهيأ لهم أن يكشفوا ما يحيط ببلادهم من مجاهل العمران وينزلوا أخصب البقاع ، ويتملكوا أغنى المرافئ والثغور ، لا يجاريهم بها مجاري ، ولا ينافسهم فيها منافس ، فكانت صقلّية ، وقبرص ، ورودس ، وجنوه ، والبندقية من قواعد بحر الروم ؛ وكالكوتا ، وسرنديب من ثغور الهند ؛ وجاوا من الأرخبيل الشرقي ؛ وبربره وماندي من شواطئ إفريقية وبحر القُلْزُم ؛ وسيراف وعُمان على المحيط الهندي والخليج الفارسي محطات لقوافلهم ومراسي لسفنهم . ولقد عرفوا هذه البلاد كلّها ، وسلكوا بحارها ، وبحثوا عن خصائصها ، وأحصوا ثروتها ، ودرسوا أقاليمها ، وقدّروا أبعادها ، وألفوا في جغرافيتها ،

وكتبوا عن عجائبها ، ووضعوا لها الخرائط والمصورات ؛ وأصبحت الخزانة الجغرافية العربية حافلة بكنوزهم ومؤلفاتهم ؛ عنها أخذ الغرب وبها اهتدى .

ولما دبّت روح الحياة في القارة الأوروبية ، وتنبّه العالم الغربيّ من غفلته في أوائل القرن الخامس عشر ؛ اتجهت أنظارهم إلى الاكتشافات الجغرافية وتحولت أبصارهم لارتياد الأصقاع النائية طلباً للاستعمار ، وجعلوا يسيّرون سفائنهم في المحيطات التي عرفها العرب ليزاحموهم على مسالكها وينافسوهم في ثروتها .

كان ذلك والمُلك العربيّ قد بلغ به الوهن إلى أبعد حدوده ، فتقطعت أوصاله وتجزأت أطرافه ، وتفرقت كلمته ؛ فبينما نرى في الأندلس صراعاً عنيفاً على آخر معقل عربي بين فرديناند وأبي عبد الله [1] ، نرى المماليك [2] في مصر والشام يقتتلون على الإمرة والسلطان . أما العراق فكان في شغل شاغل بما نزل به من حملات المغول وغزواتهم . وأمّا بنو عثمان [3] فقد ألهتهم نشوة الظفر في أوروبا على البيزنطيين عن كل حادث سواه .

ففي إبان هذه الغمرة من التجزئة والتفكك في القومية والدين عام ١٤٩٧ — ١٤٩٨ م ، أي في الوقت الذي غادر فيه كريستوف كلومب المرفأ الاسبانيّ للمرة الثانية لمواصلة اكتشافاته في البر الجديد ، كلّفه

---

(١) عام ٨٩٧ هـ و ١٤٩١ م . (٢) ومنهم الملك الأشرف أبو النصر قيتباي .
(٣) وملكهم يومئذ بايزيد الثاني

مالك البرتغال (عمانوئيل الأول) الأميرال (واسكودوغاما) لاكتشاف طريق الهند ، فخرج بسفنه من لشبونة عام ١٤٩٧ م ، واجتاز سواحل إفريقية الغربية ، حتى وصل إلى رأس الرجاء الصالح ، وكانت القوافل البحرية قبل واسكودوغاما تضلّ الطريق أو تتحطم على صخور رأس الرجاء ولا يقدر لها النجاة . ولكن واسكودوغاما قدَر على أن يجتاز هذه العقبة ، ويتحول بسفنه نحو الشمال ، ويسير محاذياً لساحل إفريقية الشرقي ، ويبسط نفوذه على المرافئ التي في طريقه ، وينشئ في أكثرها القلاع والحصون ، ويسكنها جماعة من رجاله يجعلهم فيها وكلاء له لشراء الذهب ، والعنبر ، والعاج . ثم مرّ بمضيق (موزانبيق) واكتشف جزيرة (مدغسكر) وجزائر (القمور) حتى ألقى مرساته في الخامس عشر من شهر آذار سنة ١٤٩٨ م على مرفأ (ملندي) من مملكة (كامبايا) على ساحل إفريقية الشرقي ، التي كان يحكمها ملوك مستقلون من العرب ، وكانت ذات تجارة واسعة وخيرات كثيرة وعمران زاه زاهر .

وكانت الغاية من رحلة واسكودوغاما هذه أن يصل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء ، تلك الطريق التي لا يسلكها إلا تجار العرب وملاحوهم ، ولا يعرفها أحد سواهم ، لاختلاف مهاب الرياح في المحيط الهندي ، وشدة ثورانه وصعوبة ركوبه ، فكيف يمكنه تحقيق غرضه وهو يجهل الطريق ؟

وهنا ندع المؤرخ البرتغالي (كاسطنهيدا) يروي لنا حكاية الرّبان العربي الذي رافق الأميرال البرتغالي في رحلته إلى الهند وكان لهذا الحادث

العالمي أعظم أثر في تاريخ الاكتشافات البرتغالية قال : (كان واسكو دوغاما يجهل الطريق البحرية التي يجب عليه أن يسلكها إلى الهند ، فطلب من مالك ملندي أن يرفقه بحار عارف بمجاري المحيط الهندي يرشده إلى الطريق ؛ إلا أن الملك أهمل طلب الأميرال ولم يكترث به ، فتوترت العلائق بينهما ؛ وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان من السنة نفسها ، زار أحدُ خوّاص الملك الأميرال ، فاحتفظ به رهينة عنده على المرفأ حتى يُلجئ الملك إلى تلبية طلبه ؛ ولما علم الملك بالحادث بادر إلى إرسال ربّان يدعى (كانا كوا) واعتذر للأميرال عن تقصيره ، ثم عادت العلائق بينهما إلى سابق عهدها .)

وذكر هذا الحادث أيضاً النوتية البرتغاليون في صحيفتهم التي كانوا يصدرونها على ظهر السفينة نفسها ، كما ذكره بتفصيل أكثر مؤرخي البرتغال من رجال القرن السادس عشر ، أمثال : (جو نادس دي باروس) فقد قال : « أثناء إقامة واسكو دوغاما في ملندي من مملكة كامبايا ، زاره بعض الهندوس على ظهر السفينة ، وكانوا يكرّمون صورة العذراء لأنهم يرون فيها صورة آلهة هندوسية ، فظنهم واسكو دوغاما من المسيحيين الذين كانوا في الهند منذ أيام القديس توما ؛ وكان يرافقهم أحد مسلمي (جزرات) ويدعى (معلم كانا كا) وقد أخذ يحدث ملاحينا ، وكان الذي حمله على التحدث إليهم ، عاملان : عامل الشغف وحب الاطلاع على أخبارهم وحوادثهم ، وعامل الرضا في النزول عند رغبة مالك ملندي

الذي كان يفتش عن ربان يقبل بمرافقة البرتغاليين ليرشدهم إلى طريق الهند. وأعجب واسكو دوغاما من حديث هذا الرجل المسلم ومن معلوماته الطريفة ؛ لا سيما عندما أطلعه على مصوّر لجميع شواطئ الهند، كما يعرفها المسلمون، مع خطوط الطول والعرض بما فيها الدرجات بصورة دقيقة، ولكنها لا تشير إلى مهاب الرياح، مما جعل الجهات الأربع فيها مضبوطة، بخلاف مصوراتنا التي يظهر فيها التشويش من اختلاط العلامات الدالة على اتجاه الرياح والإبرة الممغنطة. ثم أخرج واسكو دوغاما للمسلم اصطرلاباً خشبياً كبيراً واصطرلابات أخرى معدنية لقياس ارتفاع الشمس؛ ولكن الرجل المسلم لم يظهر أي دهشة من رؤية هذه الآلات بل قال: إن ربابنة العرب في البحر الأحمر كانوا يستعملون آلات من معدن (الشَّبَه) بأشكال مثلثة ومربعة لقياس ارتفاع الشمس، وخاصة النجم الذي يستهدون به غالباً في الملاحة. ثم أضاف على ذلك قائلا: إنه وبحّارة كامبايا وجميع الهند يبحرون مستعينين ببعض النجوم الشمالية والجنوبية، وبنجوم أخرى تظهر عادة في منتصف السماء من الشرق إلى الغرب، وأنهم لا يقيسون ارتفاع النجوم بما يشبه الآلات التي مع واسكو دوغاما بل بآلات أخرى؛ وأخرجها له فكانت مركبة من ثلاث خشبات، تشبه كثيراً الآلة التي كان المسلمون في بلاد البرتغال يستعملونها. وبعد هذا الحوار الطويل مع الربّان العربي اقتنع واسكو دوغاما أنه وجد فيه كنزاً ثميناً، ولكيلا يفقده أقلع به في طريق الهند وذلك في الرابع والعشرين

من نيسان عام ١٤٩٨م، وعبر الخليج الكبير الذي يبلغ طوله ٦٠٠ فرسخ من شاطئ إلى آخر في اثنين وعشرين يوماً، دون أن يعترضه حادث. وفي أقل من شهر ألقى واسكو دوغاما مرساته في (كالكوتا) وذلك في ٢٠ أيار. فأرسل إلى البر (المعلم كاناكا) ليخبر ملك البلاد بقدوم الحملة البرتغالية، فسار الربان العربي براً من (كالكوتا) إلى (كابوكات) وهو مرفأ يقع إلى الشمال قليلاً من كالكوتا حيث كان يقيم أحد المسلمين واسمه مونسيد (أبو سعيد) المفتش لدائرة المكوس، وكان أبو سعيد يعرف المعلم كاناكا، فأضاف عنده ليلة اضطر للمبيت في البر مع مرافقه البرتغالي، وقد قال أبو سعيد إنه من رعايا تونس، وكانت له علاقات مع البرتغاليين في مدينة وهران عندما قدمت السفن البرتغالية إليها بناء على أمر الملك جوناس الثاني»

أما مؤرخو العرب فانهم سكتوا عن هذا الحادث العظيم ولم يرووا عنه شيئاً، إلا أن المؤرخ قطب الدين النهروالي في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني)(١) عند كلامه عن انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من أمراء الشراكسة قال: «وقع في أول القرن العاشر الحوادث النوادر دخول البرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة(٢) في البحر

(١) رقم ١٦٤٤ — ٥٠ و ٥٩٢٧ في مكتبة باريس الوطنية لمؤلفه قطب الدين النهروالي — ١٥١١ — ١٥٨٢ — ومن هذا الكتاب نسخة خطية في الخزانة التيمورية في القاهرة.   (٢) لعلها سبتة.

ويلجون في الظلمات ويمر (كذا) خلف جبل القمر[١] ... ويصلون إلى الشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل وبجانب الثاني بحر الظلمات[٢] في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ، ولا ينجو منهم أحد ؛ واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد ، إلى أن خلص منهم غُراب[٣] إلى بحر الهند ؛ فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له (أحمد بن ماجد) صاحَبه كبير الفرنج وكان يقال له الملندي[٤] وعاشره في السكر ، فعلم الطريق في حال سكره وقال لهم : تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهندي ، وبنوا في (كُوة) إسم لموضع من داخل الدكن هو تحت الفرنج الآن من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا ؛ ثم أخذوا هرموز ، وتقدموا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقان »

على أن رواية الخمرة والسكر هذه فرية دسّها بعض مواطني قطب الدين من أهالي مكة ، وقد ردّ عليها العلامة (غبريل فيران) قال : « من المعلوم أن المسلمين لا يقبلون دعوة مسيحي لا يعرفونه حتى يتأكدوا

---

(١) لعلها جبال القمرون . (٢) هو رأس الرجاء الصالح . (٣) اسم سفينة . (٤) الملندي او الميرانتي باللغة الاسبانية معناها أميرال أو ربان البحر .

من طعامه وشرابه إذا كانا لا يحويان ما تحرمه التقاليد الدينية ، لذلك فإنا نشك في قبول الربان العربي دعوة الأميرال البرتغالي ؛ والذي يظهر لنا أن هذه الرواية مخترعة لتبرير عمل يعده مسلمو مكة خيانة عظمى ، والذي أعتقده أن المعلم العربي إنما قبل أن يكون دليل الأميرال البرتغالي لقاء تعويض كبير على خدماته التي قدمها له . »

وأما معنى كاناكا فيقول الاستاذ فيران : « إنها صيغة مستعارة من (كانا كان) أي رياضي ، فلكي ، كاتب ، والمعلم كاناكا تعني معلم الملاحة الفلكية . وقد كان الملوك لا يعملون شيئاً دون استشارة الكاناكا ، وإن بعض تجار مالابار في الهند كانوا يسترشدون برأيه في أسفارهم . فكاناكا إسم مهنة . والمعلم كاناكا صاحب الملاقات البرتغالية ليس إلا عنواناً لينفرد النص العربي (البرق اليماني) في ذكر اسمه الحقيقي : باسم الربان أحمد بن ماجد . فهو عربي من مدينة جلفار في مقاطعة عمان »

وورد اسم ابن ماجد هذا في كتاب (المحيط) لمؤلفه الأميرال التركي المشهور سيدي علي بن حسين ، وموضوعه (الملاحة في المحيط الهندي)

يقول سيدي علي في مقدمة كتابه (المحيط) : « في عام ١٥٥٤ م أقمت خمسة أشهر في مدينة البصرة حتى بدأت الرياح الموسمية ، ثم أقلعت إلى الهند ، وقد دامت رحلتي هذه ثلاثة أشهر ، تبتدئ من أول شهر شعبان وتنتهي في سلخ شهر شوال أي من ٢ تموز — ٢٧ أيلول ١٥٥٤ م وكنت خلال هذه الأشهر الثمانية أثناء إقامتي ورحلتي لا أدع فرصة تمر دون

أن أشغل نفسي في الحديث بأمور الملاحة مع نوتية السواحل أو ملاحي مختلف البلدان، ممن كانوا على ظهر سفينتي وبذلك عاشت كيف عبر الربابنة الأقدمون هرموز وهندستان أمثال: (الليث بن كهلان، ومحمد بن شاذان، وسهل بن أبان) وكذلك جمعت الكتب التي ألفها البحارة المحدثون أمثال: (أحمد بن ماجد) من جلفار من مقاطعة عُمان. و (سليمان بن أحمد المهري) من الشحر من عرب الجنوب، كما جمعت الكتب المعروفة: بالفوائد والحاوية لابن ماجد، وتحفة الفحول والمنهاج، وقلادة الشموس لسليمان المهري؛ وتعمقت في دراستها كلها: إذ الملاحة في المحيط الهندي بدون هذه الكتب جد متعذرة، فالربابنة والقواد الغرباء لا يعرفون سبل هذا البحر، ولا بد لهم من ربان يدلهم على الطريق مادامت تنقصهم المعلومات الضرورية؛ ولذا وجدت من اللازم اللازمة قراءة أفضل المؤلفات ونقلها إلى اللغة التركية في كتاب يكون دليلاً للربابنة الذين يهمهم معرفة مثل هذه الأمور... وترجمتي هذه الأسفار العربية انتهت بمعونة الملك القدير جل شأنه وقد حوى كتابي هذا أشياء غريبة كثيرة تتعلق بالملاحة، وسميته (المحيط)...

وعندما يتكلم سيدي علي عن ابن ماجد يخصه بالمدح والإطراء، ويسميه (الباحث عن الحقيقة بين البحارين) ويقول: هو أفضل ربابنة الشاطئ الهندي الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مقدرة ونزاهة — ويختم كلامه عنه بقوله: تغمده الله برحمته».

أما مؤلفات ابن ماجد فإن له في خزانة المخطوطات العربية في دار الكتب الوطنية في باريز مخطوطين يحويان جميع ما اعتمده الأميرال التركي في كتابه المحيط . فالمخطوط الأول : ورقمه ٢٢٩٢ مجموعة رسائل في الملاحة .

١ — أولها : رسالة تسمى كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد مقسمة إلى اثنتي عشرة فائدة ، ويرجع تاريخها إلى عام ٨٩٥ ﻫ [١٤٨٩—٩٠ م]

وكتاب الفوائد يبحث عن بعض الأساطير البحرية ، والإبرة المغناطيسية ، ومنازل القمر الثمانية والعشرين ، والنجوم التي تقابل الاثنين والثلاثين خناً للإبرة (الحُلمة) والطرق البحرية في المحيط الهندي ، وخطوط عرض بعض مرافئ هذا البحر ، وبحر الصين الغربي ، والعلامات والإشارات الموجودة في البحار ، والتي تستهدي بها الطيور ، وتنخات سواحل الهند الغربية ، والجزر العشر الكبرى وهي : جزيرة العرب ، وجزيرة قُمر ، ومدغشقر (مدغسكر) ، وسومطرا ، وجاوا ، والغور أو فورموزه ، وسوقوطره ، وسيلان ، وزنجبار ، والبحرين . ثم يبحث عن الرياح الموسمية الملائمة للسفر مع تواريخها وفقاً لحساب الفُرس . ثم يختم هذه المباحث بوصف للبحر الأحمر وما فيه من رُصُف وأعماق .

وقد كتب ابن ماجد هذا الكتاب كما يقول : (من بحار إلى بحارة) لذلك كانت المصطلحات الفنية فيه كثيرة ، عدا عن أسماء الأعلام التي لا يعرفها إلا أرباب هذه المهنة ، وملاحو البحر المحيط الهندي منهم خاصة .

ومن الألفاظ التي استعملها لفظة الجاه، ويعني به نجماً قرب القطب، لأن القطب سلطان جميع النجوم المشهورة ومحور الفلك. ولفظة الميخ، ويعني به مسمار الفلك؛ وأن القطب ليس بنجم بل هو مكان مائل بين المشرق والمغرب. واتخذ من النجوم أدلة بنات نعش، وسهيلاً، والناقة، والحمارين، والعيّوق[1]، والعقرب، والنسر الواقع، والاكليل، والسماكين، والنير وغيرهما...

أما انشاؤه فاننا نلاحظ في تضاعيف الكتاب أخطاء نحوية وخروجاً على قواعد الاعراب ظاهراً مما يدل على ضعف ابن ماجد في هذه الناحية. ولعل سبب ذلك يرجع إلى قطره الذي نشأ فيه؛ فان عُمان — وهي مسقط رأسه — فرضة على المحيط الهندي كانت تعرضت لغزوات الفاتحين، وقصدتها أمم وشعوب أعجمية كثيرة استوطنتها، كالهنود، والزنج، والأحباش، والفُرس وغيرهم من أمم ذلك المحيط ومن كانت لهم أطماع تجارية أو سياسية فيها؛ أضف إلى هذا كله القبائل العربية التي كانت تنزل فيها أيام المواسم لمكانة سوقها التجارية وما يتبع ذلك من اختلاف في لغاتهم ولهجاتهم التي أفسدت على العُمانيين لغتهم مع مرور الأيام حتى عُدوا في غير العرب الفصحاء.

٢ — حاوية الاختصار في أصول علم البحار وهي أرجوزة تنيف على ألف بيت [من الورقة ٨٨ — ١١٧ الوجه الأيسر] يقدمها بالمقدمة النثرية التالية:

---

(١) نجم يتلو الثريا ولا يتقدمها

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله على حسن توفيقه وإلهام الحق بتحقيقه والهداية لأسباب الخير وطريقه ، ونصره في تغريب الفلك وتشريقه ، أحمده على معرفة الهمناها وأمدها السلسبيل البحر ورحيقه ، وفصاحة تدهش بايغ اللفظ ووجيزه ، والصلاة والسلام على النبي الأمي وعلى آله وصحبه وقريبه . أما بعد فخذ التواضع وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، فان التصنيف لمثل هذه الارجوزة زكاة الأفهام وتجديد سر دُرُسة الليالي والأيام : أقبلت بي إليها طاعة ملك الأملاك ومدبر العالم والأفلاك ؛ لقوله جل من قائل : وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، فتحققت ظنوني وشاهد قلبي وعيوني ، أن فيها وبها بعد الله تعالى الهداية ومما حل بي[1] على نظمها خشيتي إيقاع الجهل على البرية واندراس العلم ونزوله بساحة[2] ليس له فيه أهلية ، فوضعت فيها من الألفاظ الغريبة والحكمة الربانية بمشيئة الله تعالى ما أرجو به انشراح صدور ذوي الألباب عندما يذهبهم[3] (كذا) من شدة ومصاب ، صفتها مما سلك في عصري من الأراجيز المصنفة والرهمانجات[4] الواسعة المؤلفة ، كثيرة التردد والتكرار ، مستحسنة لكافة الجمهور ؛ وهي للمضيوم إقالة وحضور (كذا) وكان قصدي الاختصار وإسقاط الحشو من هوش الاكثار لئلا يستطيلها الملول ولا يتفرغ لقراءتها المشغول . فرحم الله من تصفح ما يجده من الذلل ويصلح ما فيها من خطأ وخلل ؛ وهي الأرجوزة

---

(١) لعله (ومما حملني) . (٢) لعله (بساحة من ليس) .

(٣) لعله (يدهمهم) . (٤) الرهنامج والراهنامج كتاب الطريق للملاحين في البحر

المسماة بحاوية الاختصار في أصول علم البحار ، مشتملة على أحد عشر فصلاً ؛ تصنيف العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير أقل عبد[1] الله وأحوجهم إلى رحمة ربه العلي الكبير بقية السلف وعمدة الخلف المعلم الشهير أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن أبو الركائب (كذا) النجدي عفى الله عنه وعنهم ، وعن جميع المسلمين آمين . يا كافي يا شافي يا هادي يا معين . الفصل الأول الحمد والثنا على الاستاذين ؛ ثم ذكر إشارات تحتاج إليها الربابين مما لا يخمل فصل كالطين والحشيش والبلد والمادن وما أشبه ذلك (كذا) :

٣ — أرجوزة أخرى سماها بالمعربة لأنها أعربت الخليج البربري وصححت قياسه ؛ وتاريخها ٨٩٠ هـ [١٤٨٥ م — ١٤٨٦] وهي نحو مائتي بيت أولها :

يا سائلي عن صفة المجاري   ثم قياس الأنجم الدراري

وقد وصف لنا المسعودي هذا البحر وما يلاقيه الربابنة فيه من الأهوال وركبه هو من بلاد عُمان مع جماعة من نواخذة السيرافيين قال : « ناحية بربرى[2] هي من بلاد الزنج والحبشة . ويسمى الخليج البربري . وليست هذه بربرى التي ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض إفريقية ؛ وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من الزنج ، وفي هذه البحيرة — الخليج — مسلمون من الأكابر من الزنج ؛

(١) عباد الله .   (٢) وقد ضبطها ياقوت الحموي بالتاء المربوطة فقال : بربرة .

والعُمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري — وهم يعرفونه ببحر بربري وبلاد جفوني — أكثر مسافة مما ذكرنا، وموجه عظيم كالجبال الشواهق، فإنه موج أعمى، يريدون بذلك أنه مرتفع كارتفاع الجبال، وينخفض كأخفض مايكون من الأودية، لاينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون؛ وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عُمان عرب من الأزد، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرنا من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون:

بربرى وجفوني وموجك المجنون

جفوني وبربرى وموجها كما ترى »

والذي يتبين لنا من وصف المسعودي ان ما يلاقيه ركاب هذا البحر من الأهوال والمخاطر هو الذي حمل ابن ماجد على تعريبه وتصحيحه كما قال يعني أنه وضّح مسالكه وعين مجاريه ليسهل ركوبه على النواخذة والربانة

٤ — أرجوزة في معرفة القبلة في جميع الأقطار مهّد لها بمقدمة من ثلاثة وثلاثين سطراً نثراً ثم استهلها بقوله:

باسم الإله مستعيناً أبتدي مصلياً على النبي أحمد

يسهل الشديد من مرامي في نظم در قبلة الاسلام

وهي في نحو خمسمئة بيت، وتاريخها سنة ٨٩٣ هـ —١٤٨٨ م.

٥ — أرجوزة من مئة بيت على بر العرب في خليج فارس، وليس لها تاريخ.

أرجوزة من مئتين وعشرين بيتاً على فائدة الاستدلال ببعض النجوم في بنات نعش الكبرى ، وبنات نعش الصغرى على السير في البحر ويرجع تاريخها إلى سنة ٩٠٠ هـ .

٧ — قصيدة واسمها كنز المعالمة وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر ، والنجوم ، والبروج وأسمائها وأقطابها . وهي من بحر البسيط أولها :

يا أيها الناس مهما شئتم قولوا   الأرض معلومة والبحر مجهول

ويختمها بقوله :

فنممتها مصلياً للمصطفى   داع لمن قاس بها بلا خفا
من عصرنا هذا ليوم الحشر   مادام فوق البحر فُلْكٌ يجري
وما يلوح النجم للنواظر   وحكّم القياس كلّ شاطر

ولم يذكر تاريخها .

٨ — أرجوزة من مئتين وخمس وخمسين بيتاً في ذكر المواني على ساحل الهند الغربية وبر العرب بين الدرجة السادسة والدرجة الرابعة والعشرين والدقيقة الخمسين شمالاً وليس لها تاريخ .

٩ — أرجوزة من أربعة وستين بيتاً واسمها (ميمية الابدال) تتضمن فائدة بعض النجوم الشمالية في سير السفن ويقاس بها على ستة أوجه ؛ وليس لها تاريخ .

١٠ — أرجوزة مخمسة من واحد وخمسين بيتاً تتضمن ذكر الكواكب المفيدة في الملاحة ، وتاريخها يرجع إلى سنة ٩٠٦ هـ .

١١ — أرجوزة في عدة الشهور الرومية تتألف من ثلاثة عشر بيتاً ليس لها تاريخ.

١٢ — أرجوزة مسماة بضريبة الضرائب، تتألف من مئة واثنين وتسعين بيتاً في ذكر الكواكب المفيدة في الملاحة، ليس لها تاريخ.

١٣ — أرجوزة من ثمانية وأربعين بيتاً منسوبة لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في معرفة منازل القمر وحقيقتها وأشكالها وعددها، أولها:

الشرطين[1] فهو رأس الحمل ... أبداً بدا في وقته المعتدل
ثلاث نجمات كما خط الألف ... لكنه عن القوام منحرف
ثم البطين[2] وهو يبدو فافي ... ثلاثة تشبه للأثافي
أما الثريا فهو نجم يعرف ... والناس في أعدادها تختلف

وليس لها تاريخ.

١٤ — قصيدة من مئة واثنين وسبعين بيتاً أسمها المكية لتغزله فيها بأهل مكة وموضوعها الطرق البحرية من جدة إلى رأس فرتك لكالكوت فهرموز، يقول أنها اختراع حاج خلف الليوث شهاب الدين بن ماجد، وليس لها تاريخ.

١٥ — أرجوزة من ستة وخمسين بيتاً اسمها (نادرة الابدال) على النسر الواقع والعيوق.

---

(١) الشرطان محركة نجمان من الحمل.

(٢) منزل للقمر ثلاثة كواكب صغار كأنها أثافي وهو بطن الحمل.

١٦ — القصيدة البائية المسماة بالذهبية من مئة وأربعة وتسعين بيتاً تبحث عن الصخور البحرية وعن الأعماق وعلامات البر ، وليس لها تاريخ .

١٧ — القصيدة المسماة بالفائقة ، من سبعة وخمسين بيتاً في قياس الضفدع ويسمى فم الحوت اليماني ... وليس لها تاريخ .

١٨ — أرجوزة في مراقبة بعض النجوم والأبراج ، ويسميها القصيدة البايمة .

١٩ — ثمانية فصول نثراً في الماردا ، ومعرفة بعض الأماكن ، وسبر الأغوار في المحيط الهندي .

أما المخطوط ذو الرقم ٢٥٥٩ فإنه يحوي الأراجيز التالية :

١ — أرجوزة من ثلثمائة وخمسة أبيات وتسمى بالسبعية لأن فيها سبعة علوم من علوم البحر غير الفراسة والاشارات ، وتاريخها سنة ٨٨٨ هـ

٢ — أرجوزة من ثلاثة وثلاثين بيتاً ، وموضوعها علم الفلك في الملاحة ، وتاريخها سنة ٩٦٠ هـ .

٣ — قصيدة من مئة وخمسة وخمسين بيتاً . قال : سميتها هادية المالمة لأنها من العيوب سالمة تبحث في النجوم التي توافق رسو السفن ، ووصف الموانئ على الشواطئ من (الدبو) إلى (دابول) ، وليس لها تاريخ .

ومن دراسة مؤلفات ابن ماجد تستطيع أن تقف على ناحية من شخصية الرجل وأسرته ، فهو يقول في المخطوط ذي الرقم ٢٢٩٢ صحيفة ٣ من الوجه الأول : قال مصنف الكتاب رابع الثلاثة وهو حاج الحرمين الشريفين شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك ابن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي عفى الله عنهم أجمعين . ويلقب نفسه بشاعر القبلتين مكة والقدس ، والذي أتم الحج إلى الحرمين الشريفين سليل الأسود وأسد البحر بلا منازع . أنا أحمد بن ماجد أنا المعلم العربي .

وكان أبوه وجده من قبله ملاحين شهيرين في مياه تلك البحار وقد جاء ذكرهما في عدة مواضع في الكتاب قال : « فقياسات بحر قلزم العرب وبر المل ، مما يلي العجم وبر العرب لم يجوزها (كذا) في زماني غيري واستغفر الله من الزيادة والنقصان ، ولم أذكرها في هذا الكتاب خوفاً أن يقع عليه السفهاء يحاول بها العلماء فيصيرون في معرفة القياسات في هذا البحر ... إلا أن جدي عليه الرحمة والغفران كان نادرة في ذلك البحر واستفاد منه والذي عليه الرحمة والغفران أكثر من ذلك ، وقد أخذت علم الرجلين مع كثرة التجربة فخبرت ذلك البحر القلزمي ... »

ومثله في الصحيفة الثامنة والسبعين يقول : « ولم نذكر شيئاً من بحر القلزم قلزم العرب فيجب أن نذكره إن فيه نوادر وحكم لم يذكرها إلا من جربها لأنه على طريق الحاج ، وقد كان جدي عليه الرحمة محقق

(كذا) فيه ومدقق ولم يقر لأحد فيه، وزاد عليه الوالد رحمة الله عليه بالتجريب والتكرار وفاق علمه علم أبيه، فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريباً من أربعين سنة، وقد حررنا وقررنا علم الرجلين النادرين وورّخناه ...»

وكان والده على شيء من الأدب والثقافة إلى جانب شهرته البحرية وهو يتكلم عنه بثقة فيقول: «وكان الوالد عليه الرحمة يسمونه الرباني ربان البرين، ونظم الأرجوزة المشهورة الحجازية فوق ألف بيت، ومع ذلك كله قد أصلحنا له منها ما رأينا فيه الخلل ورتبنا مالم يكن فيها ...»

وكان يعتمد كثيراً على رأي والده ومؤلفاته في أسفاره من ذلك قول عندما يتكلم عن الحقاف في البحر القلزمي: «ولما أرسينا فيها سنة ثمانمئة وتسعين في الهجرة — ١٤٨٥م — واتفق الناخوذ[1] والربان[2] على الصراية بين (أسما) وبين (مسند) فلم أطاوعهم على ذلك، لأني رأيت في أرجوزة الوالد أنه لم يكن بينهم طريق في قربهم، فإذا تباعد وحوّتهم الشعبان، ولم يكن طريق إلا على باعين واستشرنا بعضنا بعضاً فقلت لهم: الرأي إرسال سنبوق قبلنا بيوم واحد، فراح السنبوق وعنده البلد فوجد الماء باعين ولم يتغاير السنبوق، فرجع بين (مسند) (وساسوه) فجاء لنا آخر النهار، وكانت أرجوزة الوالد خيراً لي من جميع ميراثه في ذلك المكان ...»

وكما أن ابن ماجد كان في علمه تلميذاً لأبيه وجده فقد كان أيضاً تلميذاً لبحارة قدماء قبله، درس مؤلفاتهم وكتبهم واطلع عليها وعمل بها

---

(١) الناخوذ: صاحب السفينة. (٢) الربان: رئيس الملاحين.

فمن ذلك يقول: «... وفي هذا الفن كتاب المجسطي البطلموسي وهو كتاب يوناني فعرب عنه المأمون بن هارون بعض أجزائه، ومن كتب هذا الفن كتاب البناني (١) وزيج ابن الشاطر المصري (٢) وعليه أكثر حكم الديار المصرية، وكتاب أبي حنيفة الدينوري، وكتاب الطوسي وكتاب أبو المجد اسماعيل بن إبراهيم الموصلي ... وكتاب المشترك لياقوت الحموي، وكتاب ابن سعيد، وكتاب ابن حوقل فانه مستوفي العرض الطول، والدرج والبلدان، والجبال والمدن، والبحيرات، والأنهار، والأودية والجبال والأرض والسماء والأقاليم والكواكب والأطوال والعروض والقبلة. وقد دليتك على هذه الكتب فإن كنت أيها الطالب تريد الغاية أطلب هذه الكتب فإني وقفت على أكثر مما ذكرت لك وأخذت من كل شيء أحسنه من الذي يليق بهذه الصنعة ...»

وابن ماجد في موضع آخر يبين لنا فائدة هذا العلم ويظهر لنا شأنه لأن أهل الفرائض كانوا يدرسونه عليه. يقول بعد البسملة والحمد لله والصلاة على النبي: «إني رأيت العلوم في الدنيا أسمى مفخراً وأجل مرتبة وأشرف منقبة لقوله ﷺ وتحريض سائر الأنبياء على طلب العلم حتى قيل: ما من علم قبيح إلا والجهل أقبح منه، فكيف وهذا علم لم تعرف قبلة الاسلام إلا به ما صح منه، والدليل على صحته إني أقول وأفعل به، فيا طال ما قد أتينا بالمراكب من الهند والشام والزنج وفارس

---

(١) لعله البتاني. (٢) يقول الاستاذ كرد علي أنه دمشقي.

والحجاز واليمن وغيرهم بقصد لا يميل عن جهة البلد المطلوبة بأموال وأرواح، وهذا دليل مؤكد أن هذا العلم يدل على القبلة فيحتاجون إليه أهل الفرائض وقد قرأ علينا فيه كثير من علمائهم وقضاتهم لمعرفة القبلة واستحسنوه وعملوا به دون غيرهم من العلوم التقريبيات كنصب الدائرة وركز العود فيها ، ومعرفة طول مكة وعرضها ، وطول البلد التي أنت فيها وعرضها ، لم يكن طولُ وعرضُ جميع البلدان والجزر الجنوبية في البحر ، ولم يحتاطون (كذا) فيه علم ، وعلمنا يحكم على جميع ذلك لأن البحر أكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقي الإنسان به ، فإن أمكنه المعرفة بعلم الدائرة والأطوال والعروض ومعرفة جهات الكعبة والأرياح الأربعة وهي : شمال ودبور وجنوب وصبا ؛ وهذه الأرياح الأربعة الشهيرة في الدنيا ، وأما اصطلاح الناس فهو كثير كل بلد لهم اصطلاح ... »

وهو يحث على تعلم هذا العلم فيقول : « ... فاجتهدوا فيه فإنه علم نفيس ولا يتم إلا بتمام العمر ومن لا يدرك كله لا يترك كله ... »

ثم يقول : « فها أنا اختصرت منه ما يليق لأهل زماني في هذا الكتاب المسمى بكتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد ألفته وصنفته لركاب البحر ورؤسائه . . . وهو مشتمل على فوائد كثيرة وغوامض وظواهر : اثني عشر فائدة » .

ويقول ابن ماجد إن أول من ركب البحر وصنع السفينة — هو نوح عليه السلام وسفينته اسمها هيراب : ثم يتكلم لنا عن الطوفان وموضعه

والمكان الذي رست فيه السفينة ، وتعلم الناس صنعة السفن على جميع سواحل البحر في جميع الأقاليم التي قسمها نوح بين أولاده » ... حتى انتهت الدنيا لعصر بني العباس فكان استقامة ملكهم ببغداد وهي عراق العرب وكان خراسان جميعه لهم ... »

وهنا ينتقد ابن ماجد كتاب (الرهماني) الذي ألفه ثلاثة رجال مشهورين في زمن بني العباس وهم : محمد بن شاذان وسهل بن أبان ، وليث بن كهلان ، وقد رأى بنفسه هذا الرهماني ؛ وتاريخه يرجع إلى سنة ٥٨٠ هـ قال : « فاعتنوا بتأليف هذا الرهماني الذي أوله : إنا فتحنا لك . ولم يكن فيه أرجوزة ! ولا قيد إلا في كتاب ملفق لا له آخر ولا له صحة ، يُزاد فيه وينقص ، وهم مؤلفين لا مصنفين (كذا) ولم يركبون البحر (كذا) إلا من سيراف إلى مكران سبعة أيام ، ومن مكران إلى خراسان شهراً واحداً فاستقربوا الطريق وهي مسيرة ثلاثة أشهر من بغداد وصاروا يسألون عن كل بر أهله ويورخونه ، وكان في زمانهم من المعاملة المشهورين عبد العزيز بن أحمد المغربي ، وموسى القندراني ، وميمون بن خليل ، وألف قبلهم أحمد بن تبرويه وأخذوا من مؤلفاته ، وأخذوا الوصف من المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركي ، وكان يسافر في عام أربعمائة من الهجرة النبوية ، وماقارب منها في مركب (دبو كره الهندي) وكان في عصرهم من النواخيذ المشهورة أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الفضل بن أبو المغيري ؛ وكان أكثر علمهم في صفات البرور ، ومسايرات البرور أكثرها

من تحت الزنج وبر الصين ، وقد اندرست تلك البنادر والمدن وتنكَّرت أسماؤها » .

ثم يمدح كتابه وما يحويه من العلوم والتجارب والاختراعات فيقول :

« ولم يستفد في زماننا هذا شيئاً له صحة كعلومنا وتجاربنا واختراعاتنا التي في كتابنا هذا لأنها مصححة مجربة ، وليس على التجريب شيء منه ، ونهاية المتقدم بداية المتأخر ، وقد عظمنا علمهم وتآليفهم وجللنا قدورهم رحمة الله عليهم بقولنا : أنا رابع الثلاثة ، وربما في العلم الذي اخترعناه في البحر ورقة واحدة تقيم في البلاغة والصحة والفائدة والهداية والدلالة بأكثر ما صنفوه ... وقد وقرتهم بقولي : إني رابعهم لتقدمهم في الهجرة فقط وسيأتي بعد موتي زماناً ورجالاً (كذا) يعرفون لكل أحد منا منزلته ولما اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيف (كذا) بغير قيد ولا صحة بالكلية ، ولا تهذيب ، هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التي اخترعتها وصححتها وجربتها عام بعد عام ، في نظم الأراجيز والقصائد في هذا الكتاب عام ٨٨٠ هـ — ١٤٧٥ ، ٧٦ م فاستحسنوه الماهرين (كذا) من أهل هذا الفن وعملوا به واعتمدوا عليه في شدائدهم ، مثل رؤيا الجبال ، ومثل القياسات ، وأسماء النجوم ، ومعرفتها والهداية عليها ... »

وابن ماجد يورد لنا بعض الأساطير عن الملاحة وما يتعلق بها فيقول :

« كل فن من فنون البحر له أصل ؛ فأصل السفينة ذكرناها أنه من نوح عليه السلام . وأما المغناطيس الذي عليه المعتمد ، ولا تتم هذه الصنعة إلا

به ، وهو داخل على القطبين فهو استخراج داود عليه السلام ، وهو الحجر الذي قتل به داود جالوت ...» «... وأما منازل القمر وبروجه تصنيف دانيال عليه السلام ... وأما نجوم أخنان الحقة واسماؤها هو تصنيف قديم قبل الليوث المتقدم ذكرهم رحمة الله عليهم ... وأما ضرب بيت الابرة بالمغناطيس قيل أنها من داود عليه السلام لأنه كان معنى (كذا) بالحديد وخواصه ... وأما الاخنان التي هي اثنين وثلاثين خناً قسموها على المركب وجعلوها زيجاً لاخساً والخسا هو الفرد لا يقبل القسمة ...»

ثم ينتقل ابن ماجد إلى ما يجب على الربان معرفته والوقوف عليه فيقول : «أولاً معرفة المنازل . والأخنان ، والديرَ ، والمسافات ، والباشيات ، والقياس ، والاشارات ، وحلول الشمس والقمر ، والأرياح ومواسمها ، ومواسم البحر وآلات السفينة ، ومايحتاج إليه ، ومايضرها وما ينفعها وما يضطر إليه في ركوبها ، وينبغي أن تعرف المطالع والاستوايات ، وجلسة القياس ، وترتيبه ، ومطالع النجوم ، ومغاربها ، وطولها وعرضها ، وبعدها ومرها إن كان معلماً ماهراً . وينبغي أن تعرف جميع البرور وتدخاتها ، وإشاراتها كالطين ، والحشيش والحيات ، والحيتان ، والموارز ، والأرياح ، وتغيير الأمواه ، ومد البحر وجذره في كل طريقه ويكمل جميع الآلة ويتفقد في إحصان السفينة وآلاتها ورجالها ، ولا يشحنها غير العادة ، ولا يطلُع في مركب لا يُطاع فيه ، ولا مركباً بغير اعتداد ، ولا في موسم ضيق ، ويحترز الأخطار مثل : عدة ، ورجال وغيره . وينبغي للمعلم أن يعرف الصبر من التواني ، ويفرق بين

العجلة والحركة عارفاً عالماً بالأشياء عزّاماً فتاكاً ليّن في قوله ، عادلاً لا يظلم أحداً لأحد ، مقيم على الطاعة ترِب متق لله تعالى ، لا يغضب التجار على حقوق إلا على شيء وقع عليه القول أو جرت به العادة ، كثير الاحتمال على الهمة ، صبّاراً مقبولاً بين الناس ، لا يسعى فيما لا يصلح له ، أديباً لبيباً ، وإلا فليس هو معلم بالقاعدة ... »

وفي موضع آخر يقول : « فإن خافك وفسدت عندك في التنخات فلا تتركن الحزم . والحذر كل الحذر من قول الجهال والبحّاحين ، خصوصاً في (غبة نبهان) ، و (غبة الحشيش) وأنت ناج بالكوس في المغارب ، وربما أتاك المغرب وأنت في الماء الأسود معترضاً على أول الغبّة طول الليل بريح طيب ، ومجراك الواقع ومغيب السماك بالكُوس ، فالحذر الحذر في مثل ذلك وهما ستين باعاً على رأس دائرتهما فلا تدخلن في أقل من ذلك إلا عند ريح النبات ، وكل غبة احسب حساب ريحها وموسمها فإن المرء عدو ما جهله ، ولا تخاف في الريح والموسم ولا تنزعج من كلام الركاب والبحارة واجتهد على حسن العاقبة ، فقد حذرتك فلا تاومن إلا نفسك ، واحتال على فساد الترفا بالتجاريب والسياسة والفراسة ... »

ويحذّر ابن ماجد ربان السفينة بقوله : « ولو أنك جمعت ما جمعت في هذا الفن وضيعت تصانيفي وحفظها غيرك استطال عليك بها ، واعلم أن للبحر علل (كذا) فاحذر منها ، أولها : « نوم المعلم ، وحط الجاه في الليل في مكان وفي النهار في مكان غيره وذلك مما يطول الطريق ، ويحسب المعلم

أنه يجري في مجرى وهو يجري في غيره من قلة معرفته أو من فساد حقته أو سمكة مضروبة بحجر فرقدي أو مجرى بالقدامي ، أو بالكاتب أو المستور في نصف القفل خصوصاً عند الوجه والتقاصير ، والمركب الدائم المزمن في الماء فيحسب المعلم أن المركب شادّ على هدزه وهو يجري على المعرانيات ؛ وقد وقع علينا كل ذلك فصرّفنا أنفسنا فيه ، وهذه الاشارات تنبه الذهن عند العالم بهذا الفن ؛ والجاهل كالأرض الخراب وهذا الكتاب عدو الجاهلين وتحفة نفيسة عند العارفين لأنه لم يصنف مثله في هذا الفن مشتمل على الأصول وفروعه يليق بمجلس الخاص والعام ، ويستفيدها المعلم وغير المعلم ، والحذر كل الحذر من صاحب السكان لا يتغفل عنه فإنه أكبر أعدائك ، فلم ندر عند النتخة من غرعك من أهل السكان . وما صنفت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لي خمسين سنة (كذا) وما تركت فيها صاحب السكان وحده إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامي ...»

وابن ماجد يشرح لنا سياسته في ترتيب المركب والعسكر فيقول : « اعلم وفقك الله إذا عرفت جميع ذلك [من المنازل والاخنان والدير والباشيات والنجوم ومواسمها] وأردت الفعل به تأمل في السفينة وهي فوق الأرض واكتب جميع خللها ، وقليل في زماننا من يفعل ذلك في الناس ، وإنما القول على أهل الكمال ليس القول على مفلس يبيع نفسه وعرضه بأيسر شيء من الطمع ، وإذا ركبت فيها انصب عوداً وفيه خرقة دُرّاً وحريراً وقطن (كذا) لتعريف الريح به من أي خن ، وجانس

الحقه في مكانها ، وتفقد كل التفقد أول في نصب الحقه لأن من المراكب ما يكون في نجارته خالل فيهدي بك على مجراك فاستدرك الأمر بأوله ، وتأمل الجاه بالليل وحطه في مكان يوافق المكان الذي حكمت عليه بالحقه بالنهار ، حتى لا يكون بالنهار مجرى والليل مجرى ويطول الطريق ، فتحكم جميع ذلك أول سفرك فما تنفع الندامة آخر السفر وتتخات القبيحة . وتفقد في جميع الركاب والعسكر وتأمل نبوضهم لتكون عارفاً بهم عند الشدة ، واعمل خلاصك ، واسمع جميع أقوالهم وخذ مليحها ودع قبيحها ، وكن حازماً قوياً في قولك لين الطبيعة ولا تصحب من لا يطيعك فيما يعنيك ، فلم تجد لك في الشدائد شريكاً إلا الاسرار وكن شجاعاً ذو بأس (كذا) قليل الغفلة كثير الهمة كثير الصبر ، والاحتمال تقياً نقياً لا تظلم أحداً لأحد ؛ وتأمل جميع الآلات خصوصاً في السكان في كل حين وساعة ، وتأمل بحسن النبأ المستقبل ، لا يغملك التعب الذي أنت فيه فإنه منسي ؛ ولا تنام إلا بقدر ما يدفع عنك السنة والسهر ، وعندما ترقد لا تخلي المسكن وحده ، وحارب النوم الحرب الكلي :

فان الخير أبقى وإن طال الزمان به   والشر أخبث ما أوعيت من زاد

. . . .

ولا ترى خللاً في السفينة وتهملها إلى وقت آخر إلا عند الضرورة أشد مما أنت فيها ، وجود الموسم ، واختصر الشحنة ، واحسب حساب الحازمين العارفين الخير والشر كما قال الشاعر في ذلك شعراً .

فما كل من يُهوى بشيءٍ ينالهُ ولا كل من يستمهل الشكرُ يشكر

وقال حازم من العرب شعراً حسناً :

صلوا الحزم فالخطب الذي تحسبونه يسيراً فقد تلقونه متعسراً

فإن قصّرت في شيءٍ من ذلك فلا تلومن إلا نفسك فإن دركك أعظم درك من جميع من ركب البحر ، فإن فعلت ما أمرتك به وأخطأت فأنا الملوم حياً وميتاً ، وأما القضاء والقدر فهو غالب لأنه من الله تعالى ... »

ثم يورد بعض الآيات التي يجب على راكب البحر أن يتلوها ، وبعض الأدعية التي يتقرب بها من الله لأنه سبحانه وتعالى هو الصاحب في السفر والخليفة في الأهل فينبغي الاقامة بشكره خصوصاً في ركوب البحر لأنه يزجي لنا الفلك في البحر والبر فلنستغفره ولندعوه ولنتقيه حق تقاته .

وكثيراً ما نسمع ابن ماجد في كتابه يقول إن هذه الصناعة عقلية لا نقلية ويوصي البحارة فيها : « وقد ذكرنا في هذا الكتاب جمّ فوائد تغني العارفين المتأملين في أوائله وأواخره عما سواها ، والحكمة ضالة المؤمن . فاطلب ضالتك ولو في أهل الشرك فإنها صنعة عقلية لا نقلية ، فينبغي للإنسان أن يعرفها ويسأل عنها ، ويكثر السؤال ويأخذ المليح ويدع القبيح ... »

وهو في كتابه معتدّ بنفسه يتكلم عن ثقة وحزم فيقول عند كلامه عن القبلة : « ويكفي بقدار معرفتنا للعارفين بعد موتنا ، وأما في القبلة التي وضعناها كفاية للخاص والعام فعند الامتحان يكرم الرجل المهان فإن صنف من عصر آدم عليه السلام إلى يومنا هذا أعم منها نفعاً فأنا الكاذب فيما قلته ، فإننا رأينا

تصانيف الأولين كابن الوردي وغيره جعلوا الهند والسند في قسم واحد ، وجعلوا الحبشة في قسم واحد تقريباً ، وتركوا أكثر الدنيا مجهولة خصوصاً على ما هو بقرب البحار ، وأهملوا النجود والحجاز والتهائم فخير الناس من عذر الناس ...»

وابن ماجد قد جمع بين شخصية الملاح الماهر وشخصية الأديب المثقف فكثيراً ما نراه في مؤلفاته يورد شواهد شعرية تتضمن الناحية التي يشرحها، فإذا كتب عن منازل النجوم مثلاً أتى بشاهد على أسمائها من الشعر القديم :

وأمست نجوم الأخذ غبراً كأنها مقطرة من شدة البرد كُشف

ومثله :

في الشرق كاس وفي كبد السما قدم وإن تولت على غرب فمنقود

وأحياناً يأتي بشاهد من شعر ابن المعتز :

زارني والدجى أحم الحواشي والثريا في الغرب كالعنقود

وكأن الهلال طوق عروس جليت لي على غلائل سود

ليلة الوصل ساعدينا بوصل طوّل الله فيك غم الحسود

وأحياناً يورد نثراً في معرض كلامه عن الثريا فيقول :

وهي على صدر نجومها خفاقة كما تيل فيها في الخطب كأنها روح في السياق أو أقراط خود ترتعد حذراً من الفراق ، أو باقة من نرجس ، أو كأساً يدار في مجلس ، وهي شامية المنزلة والخن وكثير ما شهرت من العرب والعجم وساير الأمم دون غيرها من النجوم ؛ وذكرها مهلهل ليلة حربه في الرائية قال :

كأنّ النجم إذ ولى سحيراً فصيلٌ حنّ في يوم مطير

وقال قنفذ :

كأنّ الثريا راحة تشبر الدجى ليعلم طول الليل من قد تمرّضا

قليل تراه بين شرق ومغرب يُقاس بشبر كيف يرجى له انقضا

فما كان من حر ينسبه إلى طلوعها بالفجر ، وما كان من برد فينسب إلى غروبها بالفجر عند العرب ، لأنها شهيرة عند الحاضر والبادي في البر والبحر في جميع الدنيا نعم على الأقاليم جميعها لأنها شقّاقة ، وقال فيها عمر بن أبي ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلّت وسهيل إذا استقل يماني »

وأحيانا يورد شواهد من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

« واختلف الناس في عدد نجوم الثريا ، وكان النبي ﷺ يقول للعباس عمه : سوف يأتي من ذريتك بأضعاف عدد نجوم الثريا ملوك ، فجاء منهم ستة وعشرون خليفة . »

وأحيانا يأتي بشاهد من شعر الأخطل فيقول :

فهلاّ زجرت الطير ليلة جئته بضيْقةَ بين النجم والدّبران

وتارة تراه يورد شواهد من شعر عنترة على السماك فيقول :

« وقال فيه عنترة بن قراد في لاميته :

إن كنتُ من عدد العبيد فهمّتي فوق الثريا والسماك الأعزل

ومن قول الطغرائي في لامية العجم :

وإن علاني من دوني فلا عجب لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

ويشرح ابن ماجد البيت فيقول :

« يتمثل فيمن علاه وهو دونه حتى تمثل بالشمس وزحل لأنها فوقها وهي أنور منه وأظهر ، وكذلك العواء والسماك »

ثم يستطرد إلى أمثال العرب فيقول : « والعرب يتمثلون بكل شئ يدخل في أمثالهم بالسماك بالرفعة ، ويتمثل في العز بالعنقاء فقالوا : أعز من العنقاء ، وأضخم من فيل ، وأسمع من فرس في ظلما وغلس ، وأنوم من فهد ، وأيقظ من ذئب لأنه ينام بعين واحدة حتى يشبع نوما : فيطلقها ويغمض الأخرى ، وينام فيها فيستريح بالنائمة ويحترس باليقظانة وهو على ذلك كما قيل فيه :

ونمت كنوم الذئب في ذي خفيضة أكلت طعاماً دونه وهو جائع

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان[1] هاجع

وقالوا فلان أكرم من ديك وأعلم من نمل وأشرب من رمل ... » إلى آخر ذلك من الأمثال وهذا نوع من استطراد ابن ماجد الذي يقصد به الأحموضة والترويح عن نفس القارئ أثناء المطالعة والدرس .

وكثيراً ما يورد شواهد من نظمه نفسه كالأراجيز التي ألفها في موضوع الملاحة وهي كثيرة منها قوله :

يا سائلي عن صفة القياس اعلم وعلمه جميع الناس

الخ

---

(١) ربما كانت لغة ابن ماجد قلب الظاء ضادا .

وقوله عن العوّاء(١) والسماكين : العوّاء تنسب للنحس ، والسماكين ينسب إلى السعود والرفعة مثل الثريا والدّبران ، وأحسن ما قلنا فيه :

حضر المدامُ ومنيتي والماء … فاحا العذول وعذله إغراء
أين الملام من المدام وشربها … بتهفهف ماذا وذاك سواء
بالماء يحيا كل غصن ناضر … وكذا الملاح حياتهن الماء
إني وفيت لمن آلام به ولو … قيل الغواني ما لهن وفاء
لا غرو إن ملك الحبيبُ مقاودي … هذا (السماك) تقوده (العوّاء) »

ومن خمرياته ، وهي كما قال : « الاشعار الفائقة الرائقة في عصر الشبيبة :

صفراء ساطعة كالنار لم أرها … في الكأس إلا نفت همي وأحزاني
أصلحتها فقراح الماء من حذري … وكيف تصلح أمواه لنيران »

وهذا قليل من كثير وغيض من فيض من أدب ابن ماجد الملاح العربي الذي يعود إليه الفضل الأول في إيجاد كثير من آلات الملاحة وأدواتها ، وأشهرها : الابرة المغناطيسية التي لا يزال اسم مخترعها مجهولاً عند كثير منا معشر العرب ، فقد حدثنا ابن ماجد عن نفسه قال : « ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحك بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب ؛ إنه لم يقابل الجاه إلا سهيلية فميّزوا في هذه النكتة فاذا كان أحد يعرف فنحن مسبوقين (كذا) وكذلك رتبنا المنكاب وأدركناه في الذهبية وشرحها ... »

---

(١) منزل للقمر خمسة كواكب أو أربعة كأنها كتابة ألف .

لهذا لم يكتم الاستاذ بيرتون الانكليزي دهشته عندما قال « من الغريب أن الشرقيين يجهلون مخترع الابرة المغناطيسية مع أنه شرقي ... ولقد كان تجارة عدن في سنة ١٨٥٤ م يتلون الفاتحة على روح ابن ماجد مخترع الابرة المغناطيسية كلما أقلعوا منها » .

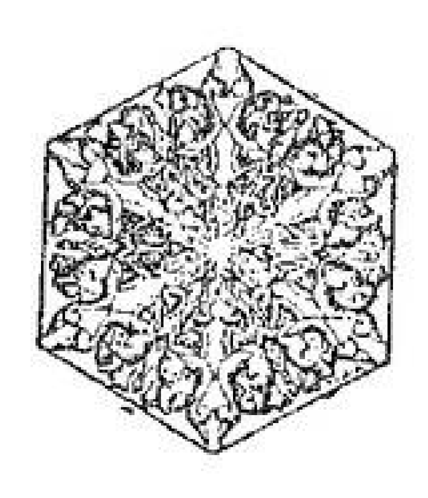
ويقول جايمس برنسيب : « إن ذكرى ابن ماجد مازالت حية في الهند وفي جزر مالديف في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهم يعتمدون على القواعد التي وضعها في علم الملاحة . وقد كنت بحثت كثيراً على بيكار عربي فلم أعثر عليه ولا في شراع ، وأخيراً وجد لي صديقي السيد حسين سيدي رسماً له في كتاب في الملاحة العملية يسمى (ماجد كتاب) عند ربان السفينة ، فرق السيد حسين الورقة من الكتاب بدون اكتراث ليريني لأن الربان لا يستغني عن كتابه هذا ، إذ بدونه يتعذر عليه الرجوع من رحلته »

وأما تاريخ ولادة ابن ماجد فغير معروف عندنا على الضبط ؛ إلا إننا نستطيع أن نستنتج من تواريخ مؤلفاته أن عمره كان ٢٥ — ٣٠ سنة عام ١٤٦٢ م ولما ألف كتابه الحاويه كان عمره ٥٢ — ٥٧ سنة ، وعندما وضع كتاب الفوائد كان عمره ٦٠ — ٦٣ سنة ، وعندما انهى قصيدته كان ذلك حوالى عام ١٠٩٤ — ٥٠٩ م وبعد ثلاث سنوات أو أربع أي في نيسان من سنة ١٤٩٨ وصل واسكو دوغاما إلى ملندي واصطحبه معه ، وأما تاريخ وفاته فلم يعرف عنه شيء .

ونختم بحثنا بشهادة الاستاذ فيرّان عن مؤلفات ابن ماجد بصورة موجزة قال : «إن هذا الكتاب يضم بين دفتيه معلومات كثيرة نظرية وعملية في علم الملاحة ، وهي خلاصة تجارب ابن ماجد الشخصية : وعلى هذا يمكننا أن ننظر إليه كأساس لعلم الملاحة في السنين الأخيرة من القرون الوسطى ؛ ويعد الأول بين مؤلفي علم الملاحة من تلك الازمان الى العصر الحاضر . فوصفه للبحر الأحمر مثلاً لم يسبقه إليه ولم يجاره فيه أحد بين مؤلفي علم الملاحة من الاوروبيين الذين كانوا يزاولون الملاحة الشراعية ، هذا إذا أغضينا عن بعض خطيئات في خطوط الطول ؛ أما المعلومات عن رياح بحار الهند والرياح المحلية والطرق وخطوط الطول لمرافئ المحيط الهندي كله فهي متقنة ومفصلة أكثر مما يمكن أن يكون في ذلك العصر . وأما معلوماته عن اندونسيا فكانت أقل نسبياً عنها في بقية المحيط الهندي · وله خطيئة لا يمكن أن نعرف سببها هي قوله : (إن جاوا متجهة شمالاً جنوبياً) خلاف اتجاهها الحقيقي : ولقد وقع الملاح سليمان المهري الذي كان يعيش في النصف الأول من القرن السادس عشر في الخطيئة نفسها ، ونقلها سيدى علي في ترجمته التركية »

هذه ناحية مجيدة من نواحي الثقافة البحرية العربية مدينة الى علماء المشرقيات المستعربين بتحقيقها ونشرها ، وما زلوا يطالعوننا بين الفينة والفينة بتحف من مفاخر أمجادنا خدمة للعلم وانتصاراً للحقيقة ، وإنا على الرغم من هذه الحقب المتطاولة بين حاضرنا وماضينا الزاهر ، نرى الأيام تكشف لنا عن

كنوز مطوية في مجاهل النسيان هي تراث أسلافنا ممن كان لهم أثر عظيم في بناء صرح الحضارة وإنارة معالمها في شتى" العلوم والفنون ، حتى أصبح عقيدة" من عقائدنا أن ما اندثر من هذا التراث وتلاشى بين سمع الدهر وبصره أكثر بكثير مما وصل إلينا ، وسلم لنا من عوادي الأيام ؛ وإن الخزانة الجغرافية العربية لتزهو فخراً بإضافة مؤلفات ابن ماجد إليها ، وإذا كان لهؤلاء العلماء فضل على ابن ماجد في تخليد اسمه بين جغرافيي العرب وملاحيهم ، فلأن ابن ماجد نفسه شخصية تاريخية كان له أكبر فضل على الاكتشافات الجغرافية والحضارة الغربية بما أوجده من آلات وأدوات وعلوم ، حلّى بها جيد الملاحة البحرية وستبقى ذكراه خالدة سجيس الليالي .



مكتب النشر العربي

آثار المؤلف

الخطط الجغرافي الحديث

تاريخ العرب قبل الاسلام

تاريخ العرب بعد الاسلام

تاريخ الحبشة (بالاشتراك مع المحامي داود تكريتي)

غزل مسلم بن الوليد والبحتري

شاعر دمشق ابن عنين

تاريخ الاسطول العربي

دمشق في العصر الايوبي

تاريخ الجغرافية عند العرب (تحت الطبع)